إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد

المصطلحات خلاصات العلوم، رحاق المعارف ورحيقها المختوم، هي أبجدية التواصل المعرفي، ومفاتيحه الأولى. وإلى جانب ذلك، فإن لغة الإصطلاح هي ملتقى الثقافات الإنسانية وعاصمة العواصم اللغوية المتباعدة، إنها لغة العولمة بامتياز كبير.

ويمثل المصطلح إشكالية نقدية عصبية، ومعضلة من معضلات الخطاب النقدي العربي المعاصر، وموقفاً معتاصماً من أشكال المواقع... التي يتبارى فيها النقاد، وبؤرة من أشد البؤر التي تثير من التوتر والجمعجة ما تثير بين الباحثين والدارسين. ذلك أن كثيراً من الوحدات المصطلحية للقاموس النقدي العربي الجديد لا تزال دون مرحلة التجديد والاستقرار، حاداً أو مفهوماً، على السواء كما يغيب البعد الاصطلاحي (الاتفاقي) عن هذه الوحدات في تشتت مناهلها بين المرجعيات اللغوية الأجنبية (الفرنسية، والإنكليزية بالخصوص)، وفي غياب تنسيق عربي موحد أثناء نقل المصطلح الدخيل، فضلاً عن أن بعضاً من تلك المصطلحات لا تزال، حتى من مرجعيتها الأولى، من قبيل المتشابهات "لأ المحكمات". لقد رفع جول ماروزو عقيدته، داقاً ناقوس الخطورة، خلال أربعينات القرن الماضي (أي قبل إنفجار القضية الإصطلاحية وتضخم المصطلح) حين أعلن خرافية توحيد المصطلحات اللسانية، فكيف وتوالي السنين لا يزيد المشكلة الإصطلاحية إلا تعقيداً، خصوصاً حين تهاجر المصطلحات من بيئة لغوية إلى مهاجر مغاير لتلك البيئة، لغوياً وحضارياً...

وبالنظر إلى ارتباط الخطاب النقدي الجديد، وبالقاموس الأفني، كان من المتوقع أن تتعالى الصيحات لتشخيص الداء الذي يكابد هذا الخطاب وعثاءه، الذي طالما حمل المصطلح جريرته، ضمن هذا الوضع الشائك، كان الأمر مقلقاً وجديراً أن يخص ببحث علمي معمق ينقصى الوضع من شتى جوانبه، وكانت الحاجة أشد ما تكون إلى دراسة متخصصة تحويه.

من هنا يأتي هذا البحث الذي سبقه للباحث بحث تمهيدي، فكان بمثابة رسالة علمية لنيل درجة الماجستير والتي جاء تحت عنوان "إشكاليات المنهج والمصطلح في تجربة عبد الملك مرتاض النقدية". وقد ولد ذلك البحث التمهيدي لدى الباحث خبرة بشؤون المصطلح، وشعوراً طموحاً بتوسيع شجونه لتشمل مجملاتمن النقدي العربي، على إختلاف الأمصار والتجارب، حيث وقف الباحث في بحثه هذا، المتن المصطلحي المراد معالجته على (الخطاب النقدي العربي الجديد) الذي قصد به كماً وافراً من النصوص النقدية النوعية الصادرة عن أطر منهجية جديدة (بنوية، أسلوبية، سيميائية، موضوعاتية، تفكيكية...)، يبتزمها قاموس متخصص من الوحدات المصطلحية اللسانية والسيميائية خصوصاً بعد ما تراءى له أن الكتابات النقدية العربية الجديدة قد بلغت من التراكم ما يسمح له باتخاذها موضوعاً للبحث والدراسة.

وحين يكون جهد الكاتب أكل، والنفع أعم، والرذية أبعد وأوسع وأعمق و أشمل، حدّ المستطاع، أثر أن يؤطر لموضوع البحث بهذا الإمتداد الزمني المكافي لعمر الخطاب النقدي المقصود، الممتد من بداية سبعينيات القرن العشرين، إلى غاية بدايات القرن الحادي والعشرين، ورغبة منه في الإحاطة بالموضوع من شتى جوانبه، هيأ الباحث خطة لبحثه تقدم على ثلاثة أبواب (تتشكل في مجموعتها من ثمانية فصول)، وقف الباب الأول على دراسة نظرية لإشكالية المصطلح في فصلين: يختص أولهما بأهمية المصطلح، ويختص الثاني بمعايير المصطلح وآليات الإصطلاح.

بينما إستبقى البابين المتبقين للدراسة التطبيقية، حيث رهن الباب الثاني لدراسة الحقول المصطلحية في الخطاب النقدي العربي الجديد، من حيث ماهيتها الدلالية، وذلك عبر أربعة فصول، يختص كل فصل منها بحقل منهجي معين على هذا النحو: الحقل البنيوي، الحقل الأسلوبي، الحقل السيميائي، الحقل التفكيكي. أما الباب الأخير، فقد إقتصر على دراسة المصطلحات النقدية الجديدة من حيث هي حدود

رأي، أي بني لغوية دالة على الماهية المفهومية، من خلال فصلين إثنيين: يتقصى الأول آليات الإصطلاح النقدي الجديد كما يتيحها فقه اللغة العربية، ويتوقف الثاني عند أهم الإشكاليات المورفولوجية المتعلقة بالحد الإصطلاحي.

وقد سعى الباحث على مدى بحثه هذا الى قراءة الخطاب النقد العربي الجديد قراءة منهجية فاحصة من خلال فحص مقرراته المصطلحية عن وثوق بإمكانية قراءة الخطاب النقدي العربي برمته من خلال تفكيك جهازه الإصطلاحي، وعن يقين معرفي بترابط المنهج والمصطلح ترابطاً تبرزه جملة من المنطلقات الافتراضية التي قام ببسطها في البحث النظري المتعلق ب (جدلية المنهج والمصطلح) وسعى الى إختبارها على مدار البحث.

ويجدر الإشارة الى أن هذا الكتاب قد حاز على جائزة الشيخ زايد للمؤلف الشاب - إمارات لعام 2009.